ديدرو DIDEROT

الذين طالعوا خطبة السر اوليفر لدج المنشورة في الصفحات السابقة وخاضوا معهُ عباب الاثير ورأوا حولهُ ملايين الجواهر وكلّ دماغهم من تصوُّر المجرَّدات يجدون شيئاً من الراحة في ترجمة ديدرو الكاتب الفرنسوي الشهير. رأينا فصلاً في هذا الموضوع في مجلة القرن التاسع عشر فاعتمدنا عليهِ في كتابة الصفحات التالية راجين ان تنهض همم المتعلمين من ابنائنا لتأليف كتاب جامع لاشتات العلوم والفنون كالانسكلوبيديا الفرنسوية التي ألَّفها ديدرو

ولد ديدرو في ٥ اكتوبر سنة ١٧١٣ اي منذ مئتي سنة تماماً وهو من عائلة سكنت ولاية شمپانيا بفرنسا قبل ذلك بمئتي سنة تعمل السيوف والسكاكين وما اشبه. وكان بكر والديهِ فاختاراهُ للخدمة الدينية على جاري عادة تلك الايام فدرس في مدرسة الجزويت التي في بلدهِ ولكنهُ ابى ان ينتظم في سلك خدَمَة الدين فعرض عليهِ ابوهُ ان يعلمهُ الطب او الفقه فابى قائلاً انهُ لا يتعلم الطب لئلاَّ يصير عملهُ قتل الناس ولا الفقه لئلاَّ يصير شغلهُ فضّ مشاكلهم وهم اولى منهُ بفضها. فقال لهُ ابوهُ اذاً ماذا تريد ان تفعل فاجاب «لاشيء اني مولَع بالمطالعة وانا راضٍ بها ولا اطلب سواها». فقطع عنهُ النفقة واضطرهُ الى السعي في طلب الرزق حاسباً انهُ يعود اليهِ نادماً كالابن الشاطر. لكنهُ لم يعد بل دخل بيت رجل من الاغنياء لتعليم اولادهِ ثم سئم هذا العمل وطلب الانصراف فقال لهُ صاحب البيت اطلب ما شئت من الاجرة وابقَ عندي معلماً لاولادي فقال لهُ ديدرو «انظر الي فقد اصفرَّ وجهي اصفرار الليمون. انا احاول ان اجعل اولادك رجالاً وهم يحاولون ان يجعلوني ولداً. لست اشكو قلة الراتب ولا سوء المعاملة لان راتبي اكثر مما استحق ومعاملتكم لي على غاية الوداد ولا اريد ان اعيش احسن مما انا عائش هنا ولكنني اريد ان لا اموت»

لا شبهة في انهُ عرف ما في صناعة التعليم من شبكات العزائم لمن كان حاد التصور عالي المطالب حتى فضَّل الجوع في مذود على التنعُّم في مدرسة يعلّم فيها مبادىء الصرف والنحو والى الدود والجوع صار وجعل يكتب العظات للقسوس ويترجم الكتب للطباعين. وتزوج زيجة لم يوفَّق بها وجعل يطوف في شوارع باريس وثيابهُ اسمال وجواربهُ سوداء مرفوءة بخيوط بيضاء لمهارة زوجتهِ وحسن ذوقها وكانت فوق ذلك سليطة اللسان كبيرة الدعوى كثيرة التمنُّد فلما دالت دولة الجمال ثقلت على طبعهِ فهجرها ولكنهُ بقي ينفق عليها على جاري

عادته . وتعرّف بفتاة ذكية العقل كبيرة النفس فجعل يتردد على مجلسها فعرّفته بكثيرين من نخبة رجال العصر

وبلغه ان كتبيًّا اسمه لبريتون عزم على ترجمة انسكلوبيذيا تشمبرس الانكليزية الى اللغة الفرنسوية فعرض نفسه لهذا العمل فاستدعاه لبريتون اليه وسمع حديثه فرأى منه رجلاً فوق ما قدّر كثيراً لان ديدرو قال له « ان ترجمة الانسكلوبيذيا الانكليزية امر حسن لذاته ومهمل جدًّا وانا قادر عليها ولكن لماذا لا يكون لفرنسا انسكلوبيذيا خاصة بها واذا كان لا بدَّ من تأليف كتاب مثل هذا فلنؤلف كتاباً جامعاً في مجلدات كثيرة يحوي كل ما تحتاج اليه البلاد وتود معرفته الامة ولاسيما بعد ان كثرت المكتشفات العلمية وقد حان الزمان لجمعها وتبويبها وماذا يمنعك عن هذا العمل الجليل وان كانت النفقة كثيرة لا تستطيع القيام بها وحدك فعلى م لا تستدعي غيرك من طابعي الكتب وللاشتراك معك »

ولم يخرج ديدرو حتى كانت الحمية قد دبت في نفس لبريتون وصار اشد غيرة منه . ولعلَّ ما دفع ديدرو لذلك لم يكن مجرَّد الغيرة على النفع العام بل كان له غاية اخرى وهي ان يجد عملاً دائماً يعمل فيه وباباً واسعاً للعيشة ولكنه كان يحب العلم ايضاً ولو كانت علومه سطحية وكان يعلم ان الانسكلوبيذيا لا بدَّ من ان تحوي اشياء كثيرة مما لا يعلمه هو ومما يفوق طوره ومن المحتمل انه اغترَّ بنفسه حينئذٍ فحسب ان هذا الكتاب يغيّر البلاد من حال الى حال . والواقع انه غيّرها فعلاً وكانت له اليد الطولى في الثورة الفرنسوية وما نتج عنها من شرّ قريب وخير بعيد لانه رمى الى غاية سامية وهي اظهار مضار الاوهام ومعايب الحكام . وكان ديدرو شديد الوطأة شديد العداء ولولا حكمة لبريتون وسياسته في حذف جانب كبير مما كان ديدرو يكتبه لما استطاع ان يتم عمله

وهذه السياسة لم ترضِ ڤولتير الذي كان من المساعدين له في انشاء الانسكلوبيذيا لانه كان جسوراً ومن طبعه ان يوقع بخصمه ويمزق لحمه ويسحق عظامه اذا رأى في ذلك ما ينشأ غيظه او يثير طبعه . ولا يهمه ان يدخل في الكتاب ما يرضيه ولو آل الى خراب طابعيه . فود ان يملأ الانسكلوبيذيا بالتهكم على رجال الدين والعقائد الدينية واتَّهم ديدرو بانه كان يحاول ابطال التعصب الديني لكي يحيي الرياء في نفوس الناس . لكن ديدرو بقي ملتزماً الحذر على قدر امكانه ولو كان رأيه مثل رأي ڤولتير . وطعن العقائد الدينية والفضائح السياسية طعنات مصميات ولكنه اراش سهامه بريش من الذهب . ولم يستخف بقوة خصومه بل قال ان الغاية تبرر الواسطة فاستعمل الرياء حاسباً انه سواغ لا بدَّ منه

في تلك الحال والاَّ نقوّض عملهُ من اصلهِ او هو مثل الزيت للآلة لكنهُ كان بخيلاً بزيتهِ فتناول لبريتون ابريق الزيت والمقراض وجعل يصب الزيت ويعمل المقراض و يزيد ويحذف حتى نقل شكوى القضاة وملتزمي الاعشار ومقتضي الحقوق ومحتكري العقول ما امكن . فعل ذلك خفية عن ديدرو فلما عرف ديدرو ما جرى قامت قيامتهُ فسخط وصخب ولقب لبريتون اشنع الالقاب فقال انهُ حمار ووحش اتلف ما اشتغلهُ عشرون رجلاً من اصدق الناس وافضلهم وعمل ما لم يرَ لهُ نظير في عالم التحرير الى ان قال لهُ « لقد انفقتُ في عملي راحتي وساعات اكلي ونومي وبكيت غيظاً امامك واسفاً ورائك خمساً وعشرين سنة وتعبت تعباً يشملهُ الخوف والخطر وكل نوع من المؤلمات فقام مجنون احمق واتلفهُ في ساعة يا للعار ويا لشماتة اعدائنا بنا ان كنتَ جباناً يخاف العواقب فلماذا اندمت على هذا العمل واشركت غيرك في مخاطرهِ . لو كان الامر في يد امرأتك لما فعلتَ ما فعلتَ »

لكنهُ لم يترك الانسكلوبيذيا بل بقي مصمماً على ان يتمها الى آخرها ويجعلها درة في تاج فرنسا وخزانة فوائد لنوع الانسان . وطلبت منهُ الملكة كاترينا ملكة روسيا ان ينتقل بها الى بطرس برج وطلب منهُ ڤولتير ان ينتقل بها الى لوزان بسويسرا فلم يسمع لهما . وخانهُ بوصيه وهجرهُ دلمبر وكانا شريكين لهُ في التأليف اما هو فبقي على عزمهِ وواظب على عملهِ واتم الانسكلوبيذيا واثبت للملاَّ انهُ اين بجدتها

وكان خصومهُ قد حاولوا صرفهُ عن هذا العمل فلما ظهر الجزء الثاني ادعوا انهُ مفسد للاخلاق مثير للشعب على الحكومة واستصدروا امراً بتوقيفهِ واخذ كل ما عندهُ من الاوراق والمسودات او يزج في السجن . فاخذوها لا ليلغوا العمل بل ليتموهُ حسب مرامهم ولكن تعذَّر عليهم ان يقرأوا خطهُ ويفكوا رموزهُ . ولما رأت الحكومة عجزهم اخذت الاوراق منهم وردتها الى ديدرو وطلبت منهُ ان يتم تأليف الانسكلوبيذيا فعل ولم يبطرهُ انتصارهُ على خصومهِ لانهُ كان يعلم ان قوتهم لا يستخفُّ بها فالتزم جانب الحذر وتجنب المشاكل على قدر الطاقة حاسباً ان اظهار الحق افضل شيء لنفي الاباطيل . واظهار الحق لا يقتضي حرباً ولا خصاماً بل يقوم بث الحقائق العلمية المقررة فانها تفعل فعل النور في نفي الظلمة لكنهُ لم يكتفِ بارشاد عقلهِ بل كثيراً ما كان يطاوع اميالهُ ويحارب خصومهُ بسلاحهم فيستعمل التهكُّم تارة والمراوغة اخرى ويفرط في احترام الشيء لكي يميل بالقارىء الى ازدرائهِ

وجرى على هذه الخطة في اظهار معايب الحكومة فوصفها كما هي ولم ينتقدها ولا عرَّض بها بل حسب ان التشهير وحدهُ كافٍ لحملها على اصلاح الخلل ومداواة العلل او لقيام الامة

عليها . واذا زاد على ذلك اشار بشيء من الاصلاح وذكره على سبيل النصيحة ففهم اهل عصره غرضه تمام الفهم واقبلوا على الاشتراك في الانسكلوبيذيا وكان عدد المشتركين فيها الفين حينما صدر الجزء الاول منها فزادوا رويداً رويداً حتى بلغوا اربعة آلاف وصدر آخر جزء منها سنة ١٧٦٥ وآخر جزء من صورها سنة ١٧٧٢ . وكان راتب ديدرو السنوي نحو مئة وعشرين جنيهاً مع ان الملتزم من ملتزمي تقديم الميرة للجيش كان يكتسب في يومه ثمانمئة جنيه

وقد قال لورد مورلي في ترجمة ديدرو « ان من يقرأ الآن تلك الانسكلوبيذيا لا يجد فيها شيئاً يستوجب ما قام عليه من القيامة وما اتهم به من الالحاد بسببها اذ ليس فيها شيء من التعطيل ولا شيء من التهجم الصريح على اسرار الدين الاساسية ولا تشهير واضح بشيء من عيوب خدمته الرئيسية ولكن منهاج الكتاب ساء اهل السيادة حينئذٍ لانهم لم يكونوا قد اعتادوا سماع من يتقدمهم كأنه كفوء لهم ثم ان ديدرو حسب ان العدل يقضي بحرية الدين وحرية البحث الفلسفي وان عمل الحكومة انما هو الاهتمام بمصالح الرعية . والانسكلوبيذيا من اولها الى آخرها سلسلة متصلة في تعظيم شأن العلوم والصنائع وذلك كله كان قذًى في عيون اهل السيادة في فرنسا في ذلك الحين »

والّف ديدرو كتباً كثيرة غير الانسكلوبيذيا وانشأ كثيراً من الرسائل في مواضيع شتّى وقد جمعت كتبه وطبعت في عشرين مجلداً ضخماً ومع ذلك لم يكن في سعة من العيش . ولما كبرت ابنته واراد تزويجها لم يكن عنده مهر لها وبلغ آذان الامبراطورة كاترينا ما هو فيه من الضيق فارسلت رسولاً الى باريس اشترى منه مكتبته بالف جنيه وابقتها في باريس واقامته حافظاً لها براتب سنوي . وسنة ١٧٧٣ ذهب الى بطرس برج ليوفع شكره لها بنفسه فرحّبت به وجعلت تجالسه وتجادله في مواضيع فلسفية مختلفة وكانا يحتدّان في الجدال على ما لم تجر به العادة في تصور الملوك . وقد اتفق الرواة على انه كان من اقدر الناس في الحديث وسرد الادلة وانه كان في الكلام امهر منه في الكتابة

ورجع من بطرس برج سنة ١٧٧٤ وعاد الى التحرير والتحبير الى ان وافته المنية سنة ١٧٨٤ . وقد كتب لورد مورلي الفيلسوف الانكليزي ترجمة مسهبة له طبعت سنة ١٨٧٨ وكتب اخيراً ترجمته في الطبعة الاخيرة من الانسكلوبيذيا الانكليزية